الاقلام

مجلة فكرية عامة تصدرها وزارة الاعلام ـ بغداد

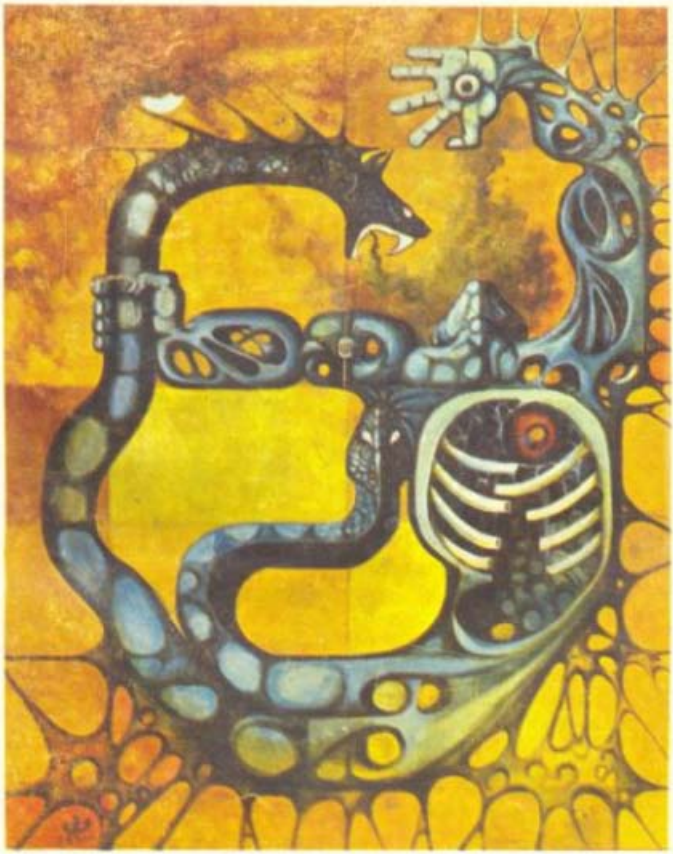

الادب والغزو الفكري

عبدالكريم غلاب

كان النقاد القدماء ومقلدوهم من المحدثين يتجهون الى البحث ـ حينما يريدون أن يؤرخوا عصرا أدبيا ـ عن أسباب ازدهار الادب في ذلك العصر ، ويعودون بظاهرة الازدهار الى ما يفكرون فيه من تلك الاسباب . ونحن في عصرنا الحاضر نبحث لا عن أسباب الازدهار . ولكن عن أسباب التخلف ، عن العوائق التى منعت الادب العربي من ان يكون في مستوى الآداب العالمية . عن عوامل الهدم التى اسهمت بحظ وافر في تقييم الكلمة والسمو بمكانة الحرف ، وجعله طريق الهداية النفسية والفكرية والسلوكية . وهو في مقدمة الآداب العالمية التي تعمقت النفس الانسانية في حبها وبغضها ، وتزقها وغضبها ورضاها ، وسلمها وعدوانها وفجورها وطهورها ، وسموها وضعتها ، فتحدث عنها ووصفها وكشفها لعشاق الحرف ومحبي الكلمة .

ان أدبنا لم يكن أدب لفظ ولم يكن أدب خطابة وتهريج ، ولم يكن أدبا متخلفا عن العصور التي عاش فيها ، ولكن عوامل الهدم التى طوحت بالمجتمعات العربية طيلة الاجيال الماضية اصابت الادب برشاشها فتخلف نتيجة لتخلف المجتمع ، وهو الآن يحاول الانتصار على التخلف كما يحاول المجتمع ، ولعل من مظاهر هذه المحاولة عقد هذا المؤتمر الذي يبحث ـ فيما يبحث فيه أثر الغزو الفكري في الادب .

ولعل من سخرية الاقدار أن ننسب الغزو الى الفكر ، وأن نتحدث عن الغزو الفكري كما نتحدث عن الغزو العسكرى أو الغزو الاقتصادى أو الغزو الاستعماري ، وكأن الفكر وسيلة من وسائل الغزو أو كأنه سلاح هدم وهو المعروف عنه انه اداة بناء .

ولكن هذه هي الحقيقة المرة ، فان الفكر استخدم كسلاح للغزو ، لم يكن الغزو من طبيعته ، وانما الذين استغلوه واستخدموه سخروه كما سخروا المعرفة والفنون التقنية والآلة للغزو ، واتخذوها جميعا كما اتخذوا فرقة عسكرية لاحتلال بلد ما واستغلال ممكناتها وتسخير سكانها واستعباد المواطنين فيها .

وكلنا يعرف ان نابليون حينما عزم على احتلال مصر قدم بين يديه مجموعة من العلماء والمفكرين ليمهدوا للغزو نفسيا وعلميا وفكريا ، وان أثرهم كان كبيرا في تقبل طائفة من المصريين لهذا الغزو ، وفي انسياق طائفة من هؤلاء نفسيا وفكريا لمحاسن الغزو الفرنسي وكلنا يعرف كذلك ان فرنسا حينما اتجهت الى احتلال المغرب العربي قدمت بين يدي جيش الاحتـــلال جماعة من العلماء والمفكرين والادباء والرحالين والجغرافيين وبعض الذين يتقنون العربية أو الذين انقطعوا لتعليم اللهجات البربرية التي يتحدث بهـا قسم من سكان بلاد المغرب ، ومن المؤسف ان نقول انها قدمت بين يدي جيش الاحتلال مجموعة من الرهبان سخروا الدين للاحتلال ، وسخروا بعد ذلك الاحتلال للتبشير بالديانة التي يدين بها المحتلون ، وهؤلاء جميعا مهـــدوا للاستعمار ، وكانوا هم الجيش الخفي الذي يمهد للمعركة ويخرب الارض الصلدة تحت اقدام الابطال الذين قاوموا الاستعمار ، وقدموا دمائهم فـداء لبلادهم .

فكان الفكر اذن وسيلة من وسائل الغزو ، وكان المفكرون فصيلة في جيش الاحتلال ، ومن سوء الحظ انها كانت أقوى فصيلة مهدت لانهزام الحرية في وطننا العربي .

ويتجلى الاثر الذي تركوه ، في تحريف المقومات العلمية والحضارية لبلادنا العربية . فقد تصبوا انفسهم لكتابة تاريخنا فشوهوه ومزقوه وادخلوه في باب تاريخ العصور المظلمة واذا كانوا قد نسوا أو تناسوا الجهود الحضارية والفكرية التي بذلها العرب في تاريخهم ، فانهم قد اتجهوا الى جوانب الضعف في هذا التاريخ فركزوا عليها ابحاثهم ، وبذلك أصبح العرب عندهم مجموعة من القبائل تتصارع من اجل الغلبة والسلطة واصبح الحكم والحاكمـــين عندهم مجموعة من المتسلطين الذين استعبدوا شعوبهم ، واضاعوا كيانهـا ليستطيعوا استغلالها افظع استغلال ، ولذلك لا غرابة ان تخفض في كتب التاريخ التي كتبها الاستعماريون الجوانب المشرقة في تاريخنا لتبرز جوانب الضعف أو الجوانب المكذوبة .

وقل مثل ذلك حينما يتحدثون عن التراث الحضاري العلمي أو الفني او الفكري فانهم يوجهون البحث توجيها استعماريا ، فينكرون على علمائنا الاصالة الفكرية وكل ما أتوا به انما هو ترجمة أو شرح أو تكرار للفلسفة اليونانية أو للفقه الروماني أو لفن المعمار الغربي أو لفن النقش والرسم الاسباني أو الموسيقى الاجنبية ، وكل اصالة فكرية في أدبنا تعود عندهم الى اصول يونانية أو اجنبية على العموم انحدرت اليه بواسطة الوراثة الجنسية عن جد قديم أو جدة أعرق في القدم .

ومثل ذلك يقال حينما يقيمون انتاجنا ، فالمغرب عندهم مثلا انما يستطيع أن ينتج في الفقه والجدل اللفظي اما الفلسفة واما فلسفة التاريخ واما الادب ، فهم يعودون بأصول ذلك الى تراث الاندلس وهو تراث مطعم

بفكر غربي ولم يكن عربيا أصيلا رغم ان الحضارة الاندلسية لم تكن في أصلها ومبناها الا حضارة عربية مغربية أصيلة . وما استفادته من أى تراث آخر انما هو من قبيل ما يمكن ان تستفيده أية حضارة من أية حضارة أخرى .

ولا يمكن ان نذكر هؤلاء الباحثين الذين ساروا في ركب الاستعمار أو كانوا روّاده دون ان نذكر اللغة ، وهي الوسيلة الاولى للفكر – واثرها في الغزو الفكري ، فقد كانت لغة المستعمر – ونتحدث عن تجربتنا في المغرب العربي – الوسيلة الاولى للغزو الفكري الاستعماري ، دخلت بلادنا لا على انها لغة فكر وحضارة وثقافة ، ولكن على انها لغة رفع الامية ولغة حديث ولغة غازية تحل محل اللغة القومية في الحديث والكتابة والمعاملة . واذا كانت قد دخلت المدرسة والادارة فقد غزت كذلك السوق والمعمل والمصنع والمزرعة والنزل ، وطاردت العربية في كل مجال يمكن أن تتنفس فيه نسيم الحياة . واذا لم تستطع القضاء على لغتنا القومية نهائيا ، فقد كانت آثار مطاردتها قوية عنيفة وخاصة في الجزائر حيث أصبحت اللغة العربية لغة متخلفة لا تستطيع ان تسد حاجتنا الفكرية ولا حاجتنا الحضارية والادارية .

واذا سمع اخواننا في الشرق العربي حملة المواطنين العرب في المغرب من اجل التعريب فلا يستغربوا ، فقد اصبحت العربية في هذه البلاد غريبة في كل مجال فكرى أو حاضري أو ادارة ، واصبحنا نتكلم بلغة ونفكر وندير ونتعامل بأخرى بل ان اللغة الغازية احتفظت بمكانتها ، فلا يكاد يخرج المتعلم منا صفة مجال الحديث العادي حتى يلتجيء اليها لتساعده في التعبير عن افكاره ، ولو كانت أفكارا مجردة لا علم فيها ولا تقنيه .

واللغة كما لا أحتاج ان اقول ليست اداة ولكنها فكر وروح ، ليست أسماء وافعالا وحروفا ، ولكنها تحمل كل مقومات الامة التي تبينت فيها وسايرت تاريخها وكل تطوراتها الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والحضارية فاذا استغلت كأداة للغزو فانها – بالاضافة الى قضائها على اللغة القومية – تحمل معها طابع الامة الغازية وفكر الامة الغازية ، وتحمل مع الطابع والفكر التقدير والاعتراف والتابي (أي الاعتراف بالابوة) وغير ذلك مما يمكن ان يكنه الموطن للغته القومية . فهى اذ تحل محل اللغة القومية تتمتع بكل الممكنات المادية والمعنوية التي يمكن ان تتمتع اللغة القومية بها .

وذلك غزو خطير للفكر والروح والنفس والذوق سبيله اللغة التي تقوم في بلادها بدور آخر في خدمة الفكر والادب والذوق والروح والنفس . ولهذا الغزو اللغوي مركبات أو عقد نفسية خطيرة واتحدث هنا ايضا عن تجربتنا في المغرب العربي .

في مقدمة هذه المركبات :

احتقار اللغة القومية ، والانسان بطبعه عدو لما يجهل فاذا وقع المتعلم في مازق بين لغتين ، احداهما فيما يعلم قوية متطورة تمكنه من التعبير والتفكير وتقدم له نماذج حية يقرأها ويفهمها بسهولة ، والاخرى فيما يعلم متخلفة

تعيش في الماضي وتقدم نماذج ميتة لا يقيم أود قراءتها ولا يتفهمها ، فهو منساق أراد أو لم يرد الى الابتعاد عن هذه كلما اقترب من تلك والى احتقار لغته القومية كلما اعتز باللغة الاجنبية • ومن ثم نجده يقوم مقام المستعمر في تحقيق الغزو الفكري •

ثم الدفاع عن اللغة الغازية على حساب اللغة القومية لان التي يدافع عنها هي فيما يعلم الاوضح والاقوى والاجمل والافيد ، ثم هي اللغة التي تقوم عليها حياته ، وليس في استطاعته ولا من مصلحته أن يعود أميا أو نصف متعلم ولذلك فهو يتبنى الفكرة التي يقوم عليها الغزو الفكري الاجنبي والامة هي الضحية •

ومن أخطر هذه المركبات ان المتعلم وهو يحتقر اللغة القومية ويدافع عن اللغة الغازية يجد نفسه فكريا ونفسيا في غير وطنه أو هو يجد نفسه واقعيا ومعاشيا في غير وطنه الفكري والنفسي ، فهو موزع الشخصية منقسمها يعيش بين قوم ويتكلم لغتهم ولكنه منفي في فكر آخرين وأحاسيسهم ومشاعرهم ومثلهم صلته بهؤلاء أقوى وأمتن من صلته بالآخرين ولكنه مع ذلك ليس واحدا من هؤلاء ولا هو أبنا من أبنائهم • فبأي فكر يفكر ؟

نتيجة هذا المركب الخطير انه ينصرف عن التفكير والكتابة ليخلد الى السكينة في ركن مجهول من ادارة ما ، وهو المصير الذي انتهى اليه كثير من أصحاب المواهب الادبية عندنا ، أو أنه يعيش عمليا — كما يعيش فكريا ونفسيا — في بلد اللغة الغازية ليفكر لها وبها كما حدث لكثير من أدباء المغرب العربي وخاصة الجزائر قبل استقلالها وثورتها المظفرة •

والنتيجة ان اللغة العربية كانت في الغالب أضعف من أن تضعف الحاسة الادبية عند اغلبية المتعلمين في المغرب العربي ، وكانت اللغة الاجنبية تشعرهم بهذا المركب الخطير فينصرفون عن الادب ، وذلك سبب من أسباب الضعف الذي تعانيه الحركة الادبية في المغرب العربي •

اذن فالغزو الفكري تسرب عن طريق غزو اللغة الى الادب وكان أثره الخطير أن أصحاب المواهب الادبية أحد رجلين : رجل يتقن لغة أجنبية ويفكر بها ويستطيع أن ينتج بها ، ولكنه يتخلى عن الانتاج ، لانه يعيش بين جمهور له لغة قومية أخرى ربما لا يقدر انتاجه أو لا يتفهمه ، ورجل يتقن لغته القومية : العربية ، ولكن آفاقه محدودة لانه لا يستطيع أن يفتحها على آداب عالمية أخرى فهو يجهل لغة اجنبية تمكنه من ذلك •
وتلك خسارة أية خسارة للادب العربي •

وأشير هنا — وانا بسبيل التحدث عن اخطار هذا المركب — الى ظاهرة هامة نلمسها نحن في المغرب العربي وخاصة في المغرب والجزائر ، وذلك ان اللغة الاجنبية طاردت اللغة العربية في مناطق لا تتكلم عندنا اللغة العربية ، فكثير من المناطق الجبلية أو السهلية التي تتحدث بلهجات بربرية كما هو الشأن في بعض مناطق النوبة بمصر أو المناطق الكردية التي تتحدث

الكردية في العراق مثلا ، في هذه المناطق المغربية حاولت الفرنسية أو الاسبانية ان تخلف اللغة العربية التي كانت هي لغة التعليم والثقافة والمعاملات الادارية والدينية قبل الاستعمار • وخلفتها بالفعل الى حد بعيد ، وبذلك أصبح المغرب في هذه المناطق يبعد عن العربية لانه يتحدث في البيت البربرية ويقرأ ويكتب ويفكر بالفرنسية أو الاسبانية ولا يمكن أن نتطلب من هذا أن يكون أديبا عربيا مهما تكن مواهبه ، والمتفوقون من هؤلاء ــ وخاصة في الجزائر ــ انتجوا بالفرنسية ولم ينتجوا بعربية ولا ببربرية •

من المركبات الخطيرة الناتجة عن الغزو الفكري الاستعماري اضعاف الشعور بالقومية وانحلال الحاسة الوطنية عند بعض المنتمين الى الادب وخاصة اثناء العهد الاستعماري ، فقد سخر بعض الادباء والشعراء وبعضهم كان متفوقا في زمنه سخروا أدبهم للاشادة بالاستعمار وبالحاكمين الاستعماريين •

ولا نأسف على شيء قدر أسفنا على مواهب وامكانيات فكرية غمرها الضياع لان اصحابها قصروا انتاجهم ــ وقد كان معظمهم من كتاب الدواوين الحكومية الاستعمارية ــ على مدح الحكام الاستعماريين والاشادة بمزاياهم بشعر لا بأس بلغته وأسلوبه •

والاشادة بأعمال الحاكمين في الصحف الاستعمارية بنثر فني كان من أجود ضروب النثر الفني في العالم العربي آنذاك •

قد لا تكون تلك بغاية الغزو الفكري الاستعماري ، ولكنها غزو للفكر على كل حال •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ايها السادة :

لعل اخطر مظاهر الغزو الفكري تتمثل في فساد القيم الفكرية والاجتماعية التي انتشرت مع الاستعمار ، فالحملة التي قامت بها كتيبة العلماء والمفكرين والاساتذة التابعة للحملة الاستعمارية لم تكن لتتخلى عن مهمتها في نشر قيم خطرة في المجتمعات العربية • واذا كانت الطائفية في الشرق العربي أحد مظاهر هذه القيم الخربة المخربة فان العنصرية في مقدمة هذه القيم التي اضطلع بها الغزو الفكري في المغرب العربي • المجتمع الواحد اصبح مسلما ومسيحيا ويهوديا وعربيا وقبائليا وبربريا وكرديا وتحلل المجتمع الذى كان من الممكن ان ينهض بفكر عربي موحد على اساس قومية عربية واحدة الى مجموعة من الطوائف والقوميات كان الاستعمار يهدف من ورائها ــ لولا ان ادركته اليقظة الوطنية ــ الى خلق مجموعة من الشعوب المتصارعة ليتمكن بذلك من اضعاف امكانياتها الوحدوية من جهة وليتمكن من اضعاف امكانياتها الانتاجية من جهة أخرى ، ولتكفيه مهمة التوغل في السيطرة عليها • وربما يكون قد نجح في ذلك حتى اصبح الحكم في بعض البلاد العربية بين الطوائف والقوميات المختلفة التي ابتدعها • فتفتيت

المجتمع العربي وتمزيقه لم يات عن طريق القوة فحسب ولكنه اتى عن طريق الفكر الذي سخره علماء الاستعمار ومفكروه الذين بحثوا في الاصول الاولى للمجتمعات قبل ان توحدها العروبة أو يوحدها الاسلام ، ودفعوا بالسلطة الحاكمة الاستعمارية الى تمزيق المجتمعات على أساس هذه الاصول أو على اساس الطوائف الدينية أو العنصرية ، وكان لهذا أثر خطير على الفكر العربي كذلك ٠

وللادب دور في صد هذا الغزو كما سنرى ٠

والاستعمار الذي كاد يكون مذهبا موحد ، له أصوله وقواعده وسيرته واعرافه ، تلقف العالم العربي في وقت تكوين القوميات الموحدة ، وبدلا من ان يساعد هذا العالم على الوحدة ساعد على التمزيق والتفريق وخلق الحدود المصطنعة والدول المختلفة والوطنيات الضيقة واذا كانت هذه الوطنيات قد نشأت تحت تأثير فكرة مقاومة الاستعمار فقد تعمقت فيها جذور الوطنية الضيقة حتى اصبحت كل مجموعة منها تكون وطنا ودولة وحدودا تقف في بعض الاحيان جيوشها للدفاع عنها ٠

هذه الوطنية الضيقة التي غزت العالم العربي انما هي نتيجة للغزو الفكري الذى نقل فكرة القوميات والوطنيات الاوربية بكل مباذلها وسيئاتها الى عالم كل ما فيه يدعو الى الوحدة والترابط وما من شك في ان الكفاح الوطني قد استفاد من هذه الافكار في مقاومة الاستعمار ، ولكنه قد خسر الزمن فيما نعتقد لانه كافح الاستعمار جزءا جزءا وبلدا بلدا وخسر الزمن كذلك لانه ما يزال حتى الآن يبحث فكرة الوحدة مذهبيا وعمليا ، وما يزال يجد في تحقيقها كثيرا من الصعوبات لم تجدها الدول التي كانت عماد كفاحها في القرن الماضي ومنتصرة على كل التعقيدات الاقتصادية والاجتماعية التي نشأت مع تطور الحضارة والنمو الاقتصادى ومنتصرة كذلك ـ وهذا مهم جدا ـ على آثار وعقد الحروب الطاحنة التى قامت بينها في القرن الماضي وفي النصف الاول من هذا القرن ٠

وهكذا نجد ان الدول الاستعمارية التي نشرت القوميات الضيقة في البلاد العربية قد تخلت الآن عن هذه القوميات وبدأت تنادي مثلا بأوربا للاوربيين بدلا من النداءات السابقة : فرنسا للفرنسيين أو المانيا للالمانيين ونجد كذلك ان الغزو الفكري تبنى افكارا أو نظريات اجتماعية من شأنها ان تحطم قوة المجتمع وتضعف وحدته ٠٠ فالفلاحون مثلا لم يخلقوا الا لكي ينتجوا للحضريين الذين عليهم ان يفكروا والعمال طبقة كادحة عليها ان تنمي الدخل الفردي لاقطاعي الصناعة كما ينمي الفلاحون الدخل الفردي لاقطاعي الفلاحة ٠ والبلاد ـ مثلا ـ تقسم الى المناطق النافعة وهي المناطق المنتجة المستغلة والمناطق غير النافعة ٠ والسكان ينالون حظهم في العناية وفي الاستفادة بمقدار ما ينتج اقليمهم ٠

وما من شك في ان افكارا تقسم المجتمع على هذا الاساس كانت خطرا

على المجتمع نفسه وعلى المواطنين العرب الذين كانوا ضحيتها رغم كفاحهم للتخلص من السيطرة الاستعمارية ·

ونجد افكارا اجتماعية واردة قد تحطم اصول مجتمعنا ووطنيتنا العربية ، وهي مع ذلك تدخل مع الفكر الهادف الغازي لتزيد في بلبلة الفكر القومي العربي ، ولتشغلنا عن المعركة التي نخوضها والتي يجب أن ننصرف اليها ، معركة التحرر ومقاومة التخلف ·

تلك بعض مظاهر الغزو الفكري التي أتت عن طريق الغزو الاستعماري القديم منه والحديث واذا كنا ضحية لهذا الغزو في ماضينا فيجب ونحن نبحث عن الحياة الافضل في حاضرنا ومستقبلنا ان نتخلص من هذا الغزو الفكري كما تخلصنا من الغزو السياسي والاستعماري ·

والادب باعتباره الوسيلة الاولى لبث الوعي وتحرير الفكر من رواسب التخلف وانقاذ المجتمع من الانحلال يجب ان يخوض المعركة ضد الغـــزو الفكري · وعن طريق القلم نستطيع ان نصحح الاوضاع التي استهدفت للانحراف والتزييف فيما كتبه المنحرفون من رواد الاستعمار الفكري ، ونستطيع ان نبصر الشعوب العربية بقيمة اللغة العربية وتراثها الحضارى والفكري ونستطيع ان نحرر الفكر العربي من التعبير للقيم الفكرية والعلمية المزعومة التي نشرها بين الباحثين علماء ومستشرقون استهدفوا بابحاثهم الانحرافية تزييف التاريخ والتنكر لحقائق العلم ·

اننا التزاميون في معركة التحرر التي نخوضها ودورنا هو دور القلم الملزم الموصوف بالحرية المتعطش لان يخوض في سبيلها معركة ضد كل مظاهر الغزو الفكري معركتنا في صميم معركة الحرية ولن تكون الا رد فعل للمعركة التي خاضها المثقفون المنحرفون الذين باعوا انفسهم للاستعمار فكانوا في ركبة الغازي وصرفوا اعمارهم باحثين منقبين عن كل وسيلة لتحطيم قوميتنا ومجتمعنا وتراثنا ·